نعمتي

كان يوم سفري إلى العاصمة لحضور معرض الكتاب يوماً مميزاً غيّر مجرى حياتي كلها .... في البداية لم يكن هناك أي شيءٍ استثنائي إلا تلك العجوز الثرثارة التي جلست بجانبي و لم تتوقف عن الحديث معي ومع الركاب وحتى مع السائق !! لم أعرها انتباهي في بادئ الأمر ... كنت فقط أصغي إلى تلك الموسيقى الجميلة التي كانت تعزفها مخيلتي من مكنوز الأنغام الجميلة التي كنت أحفظها واستمتع بها كلما خلوت بنفسي أو كنت على طريق السفر.... شيئاً فشيئاً بدأت أشعر بالانزعاج من هذه الجارة كونها كانت توكز يدي بأصبعها ذو الظفر الطويل المدبب كلما أرادت الحديث معي !! كنت أنظر إليها شزراً علّها تفهم .... ولكن هيهات ..... كانت غير مهتمة بانزعاجي .... كانت البسمة تعلو وجهها و هي تغدق عليّ بكلامها الذي لا أدري من أين كانت تأتي به .. ولا متى ستتوقف عنه ..... ومع ذلك فقد كانت أنغامي المفضلة تطغى على حديثها الذي كانت ترميني وترمي الناس به يميناً وشمالاً كحمم البركان بلا كللٍ أو ملل ..... ولأنني مشهور بهدوء أعصابي فقد اضطررت مرغماً أن أجاريها أحياناً بابتسامة كاذبة أرسمها على وجهي رغم أنفي لعلها تتركني وشأني ... ولكن هيهات ..... أحمدك ربّي على نعمتك ...

مكرهٌ لا بطلْ فقد أرغمتُ نفسي بين الحين و الآخر على ترديد عبارات مثل " آه ... جميل....." و " سبحان الله ... تصوري .... " وأعود بعدها لموسيقاي الجميلة .... ولكن عبثاً ..... حتى عندما ادّعيت النوم وأسندت رأسي للنافذة لعلّ هذه الببغا تتوقف ولو لالتقاط أنفاسها ... إلا أن رمحها (إصبعها) لم يتوقف هو الآخر عن تنغيصي !!

ظللت أدّعي النوم وأنا أفوّت على نفسي جمال المناظر التي أمتّع عيني بها كلما سافرت .... واعتقدت أن صبري قد بدأ ينفذ .... المشكلة أنه عليّ أن أتحملها لمدة خمس ساعات حتى نهاية الرحلة!! فجأة أحسست بشيء من الهدوء والاستقرار على ذراعي المسكين.... فانتابني شعورٌ طفولي من الفرح .... واعتقدت أن فكها قد تشنج أو أنها ماتت من كثرة الكلام والجهد الذي بذله لسانها وإصبعها خلال الساعة والنصف الأولى من الرحلة .....

ادعيت الاستيقاظ ليخيب أملي من جديد ... فقد اتضح أنها ما زالت حيّة تسعى ... لكنها صامتة هذه المرّة .... نعم لقد كانت تتفرج على فيلم وضعه السائق قبل موعده الاعتيادي ، ربما ليتخلص من لسانها الطويل ويوفر على نفسه حرج نقاشها أو إسكاتها فيسيء إلى سمعة هذه الشركة المحترمة التي أسافر معها منذ سنين ..... حمدت الله تعالى على نعمته عليّ وعدت إلى موسيقاي الجميلة والاستمتاع بالمناظر الخلاّبة على الطريق .... ومع هذا كنت أتوجس خيفة أن يستيقظ هذا البركان الساكن ليقذفنا بحممه من جديد .....

مرّت نصف ساعة بلا أية خسائر تذكر ..... الكلُّ كان مسروراً بما فيهم جارتي ..... أحمدك ربّي على نعمتك ..... ولكن هذه الفرحة سرعان ما تحولت إلى نكد جديد .... حيث بدأت جارتي جديدَ هجماتها عليّ بصواريخٍ متتالية من رمحها المدبب ووكزاتها المؤلمة ، وانطلقت قذائف الكلام من لسانها وتعالت ضحكاتها وسط استهجان الجميع فقد كان الفيلم كوميدياً .... سامح الله هذا السائق ... لماذا لم يضع فيلماً هندياً !! تماسكتُ ... ورحتُ أعد للعشرة فقد خشيت أن أفقد اتزاني مع هذه الثرثارة التي كانت تزدريها أعين الجميع دونما أي إحساس منها بالخجل أو الحياء .... أحمدك ربّي على نعمتك .....

أخيراً قررت نزع ثوب الحياء وورقة التوت الأخيرة .... فملت إليها قليلاً بوجه عابس وهمست في أذنها " ليتك تخرسين .... أنت تزعجين الجميع ...." فجأة تغيرت قسماتها ورمقتني بنظرة استهجان و ازدراء !! أشاحت بوجهها عني وراحت تحدّق في الشاشة وتنظر إلى الآخرين شزراً دون أن تنطق بكلمة ... عدت برأسي إلى النافذة غير عابئ بصورتها الجديدة ... تمنيت لو أنني نزعت ثوب الحياء منذ البداية و لم أنتظر كل هذه المدة .... ومع ذلك فقد ظلت ترمقني بنظراتها الساخطة من حين لآخر ولكن دون أن تنطق طوال بقية الرحلة .... كان هذا نصراً مبيناً لي علماً بأنني لا أحمل لها أية ضغينة أو استعلاء في نفسي ... فلم يكن يضرّني كلامها أبداً بقدر ما كان " رمحها " هو المشكلة سامحها الله ..... حمدت الله على الوصول بسلام وعلى نعمته الكبرى عليّ .

يومها قمت بزيارة معرض الكتاب وكان معرضاً كبيراً لا أستطيع مسحه في يوم واحد .... ومهلتي كانت محدودة فلدي ثلاثة أيام فقط قبل العودة لعملي .... لهذا فقد وضعت برنامجاً وهدفاً محدداً لكل يوم زيارة وشرعت بالعمل به فوراً ...

بينما كنت أسير بين الصفوف الطويلة أتأمل الكتب التي تزينها استوقفني وجه لم أنس يوماً جميلَ ملامحه أو ابتسامته الفريدة التي ظلت مطبوعة في مخيلتي منذ تلك الأيام ..... نعم إنها هي ... هند زميلة الدراسة الجامعية وزميلة المكتبة التي كنت أرتادها للمطالعة .... والحب الصامت الفاشل في حياتي ..... يا لهذه السنين كيف يمضي قطارها بنا ولا نحسُّ به إلا وقد ترك فوق وجوهنا علاماته .. لم يتغير في ملامحها شيء .... الوجه الجميل هو هو .... هناك شيء من الوزن الزائد ... فقد كانت أنحف آنذاك ... لكن قوامها ما زال جميلاً كما عهدته ..... لم نتردد كلانا في إلقاء التحية على بعضنا البعض .. وكم كنت سعيداً أنها تذكرتني .... حاولت متابعة سيري لكنها بادرت بحديثها معي مما اضطرني للوقوف والحديث معها ... كم كنت سعيداً وكم كان الموقف صعباً عليّ ... ليت الأمر انتهى بتلك التحية .... كنت أبذل جهدي في الإجابة على أسألتها برد مبسّطٍ لا إطالة فيه ...

لم أكن أرغب بأن تكون أجوبتي قصيرة لكنني مرغم ..... كنت أرغب بمزيد الحديث معها أكثر فأكثر وهي التي غيرت نبض قلبي في تلك الأيام .... فهمت من حديثها أنها تفرغت لنيل شهادة الدكتوراه فلم تفلح في تكوين أسرة كسائر الفتيات ..... سرني هذا الخبر وأحزنني عجزي عن إطلاق مشاعري التي أجج هذا اللقاء نارها من جديد ..... لكن هذا الموقف وما تلاه دفعني لاتخاذ القرار الذي كنت زاهداً فيه ..... أعلمتها أنني موجود ليومين آخرين لعلنا نلتقي من جديد ... لم تعدني بشيء لكنها جادت عليّ بابتسامتها الساحرة وكأنها إيحاء بالقبول .... ودّعتها ... لنتابع طريقنا كلٌّ في اتجاهه ..... ترددت للحظة ... استدرت لألقي نظرة أخرى عليها ... فإذا بها تنظر إليّ وابتسامتها لم تفارق محيّاها الجميل ..... ثم استدارت و تابعت طريقها ..... نعم .... إنها إشارة .... وبشارة خير لي ... لقد اتخذت قراري النهائي ولا رجوع عنه .....

في اليوم التالي كنت أول الداخلين إلى المعرض ... لكنني لم أبتعد كـــثيراً عـــن المـــدخل الرئيسي .... لم يكن في ذهني سواها وأملي في لقياها من جديد ... لقد أحيت لديّ أملاً كنت قد فقدته وأيقنت بزواله...كان عدد الزائرين بسيطاً في البداية ... كنت أتأملـــهم فرداً فرداً ... لم تكن بينهم ..... طال انتظاري لكنها لم تحضر ... أو ربما دخلت بـــين مجموعة من الزائرين لم أنتبه لها ..... و بعد يأسي من طول الانتظار دخلـــت إلى أروقـــة المعرض و رحت أجول بين الصفوف لعلني ألقاها ..... لم تفلح محاولاتي .... انتظـــرت حتى نهاية الزيارة و كنت آخر الخارجين ... لم أجدها .....

في اليوم الثالث تكررت نفس الحكاية ..... لم أجدها ... هل أفقد الأمل من جديد كما فعلت منذ سنين ؟ لكنني تذكرت الإشارة وبشارة الخير التي ظللت أمنّي نفسي بها..... كلا ... لن أيأس .... وسأقوم بخطوتي بعد عودتي فوراً .... أما عنوانها فليس صعباً عليّ إيجاده .....كم كنت أشتاق للعودة .... نسيتُ معرض الكتاب كله ... وصارت هي همّي الوحيد .... و أملي الوحيد ..... لن أتراجع وسأقوم بخطوتي ..... نعم هذا هـــو قراري .....

- يا أستاذ ..... يا أستاذ ....يا ....
- " **ناظراً إلى وجهها** " هه .... عفواً لقد شردت كثيراً .....
- آسفة .... كنت أنادي عليك كي تدخل إلى الطبيب فقد حان دورك ....
- شكراً جزيلاً .....

ألقى التحية على الطبيب و اقترب منه حتى صار أمامه وهو يمعن النظر في وجهه.....سأله الطبيب عن مشكلته ....

- مشكلتي .... حسناً .... منذ أربع سنوات فقدتُ سمعي أثناء عملي نتيجة تعرضـــي لموجة صوتية عالية ..... ويأس الجميع من شفائي فالحالة بالنسبة لهم مستعصـــية .... ومع مرور الأيام بدأتُ الاعتياد على حياتي الجديدة .... حتى أنني حاولت تعلم قراءة الشفاه بصعوبة فلا أستطيع الحديث مع أحد إلا بالنظر إلى وجهه وقراءة شفتيه .....

وبما أنني لا أجيد لغة قراءة الشفاه جيداً فما زلت أجد صعوبة بالتحدث مـــع النـــاس ....كثيراً ما أضطر إلى الإجابة بجمل بسيطة على قدر فهمي لحركة شـــفاههم ..... وقبل أن أسافر لحضور معرض الكتاب قرأت عنك وعن محاولاتك الناجحة في إعادة العصب السمعي إلى وضعه الطبيعي ..... لا أخفيك أنني كنت في البداية زاهـــداً في الأمر كله فقد اعتدت على الصمم ... بل أحببته ....ووجدت فيه خلاصـــاً مـــن إزعاجات كثيرة كنت أعاني منها وأنا في كامل صحتي .... أحدها كان منذ أيام أثناء سفري لحضور معرض الكتاب في العاصمة ... يومها حمدت الله على نعمة الصمم . ولكن بعدها حدث معي ما أعاد الأمل لنفسي فقررت الحضور إليك على الفور لأنقذ ما يمكن إنقاذه ..... لقد بت أعتبر الصمم نقمة ..... أريد استعادة سمعي لأستعيد ما ضاع من عمري قبل فوات الأوان .....

كانت كلماته تتفجر أملاً .....و صورة ابتسامتها لم تبارح خياله .... وأصـــبح الأمـــل بلقياها من جديد نعمة أجمل وأحلى من نعمة الصمم التي كان يعتز بها و يتفيأ ظلالها ..

محمد جمال الدين السباعي

حلب

2005/8/29